الذى قال أنا ربكم الأعلى

للأستاذ على الطنطاوى

ليس ثيابه واستعد ولكن الباب لم يفتح ، فوقف وراءه يصغى فلم يسمع صوتا ، فضاق صدره حتى أحس كأن مرارته ستنشق ، وأن أعصابه ستتمزق ، فجعل يدور فى الغرفة وساعته فى يده ينظر إليها ، حتى فتح الباب ، وأقبل الحراس ليقودوه إلى المحكمة ...

وكان يرقب هذه الساعة ويعد لها الدقائق والثوانى ، لا حبا بالمحكمة ورغبة فيها ، بل هربا من الوحدة وخوفا من لياليها ، فقد كان يمر عليه الليل طويلا ثقيلا ، وهو وحيد فى حجيرته (زنزانته) لا رفيق له إلا ذكرياته وأفكاره ، ولا مسرح لنظره إلا هذه الغرفة الضيقة ، يحدق فى جدرانها التى يسيل عليها هذا الضوء الأصفر الشاحب ، ويوهمه طول تحديقه فيه أنه يرتجف ويضطرب ، وتتراءى له ظلال غامضة لا تلبث أن تتضح فيرى فيها صورة مشنقة منصوبة ، فيغمض عينيه عنها ويحاول أن ينام فتلاحقه هذه الصور وتزداد بشاعة وهولا... فيحس أنه مشرف على الجنون ، ويقوم إلى الباب يشده ويعالجه حتى تكل يداه ، فيسقط إعياء ويأسا ... ولم يكن يتمنى إلا إنسانا يحدثه ، عدواً أو صديقاً يجد عنده صدى خواطره ، ورجع أفكاره ، ليقنع نفسه أنه لا يزال عاقلا لم يجن !

لذلك كان يجد هذه الساعة نعمة سابغة ، لأنه يلقى فيها أولاده وصحبه ، راكبين معه فى السيارة مقيدين مثله بالسلاسل والأغلال الثقال ، ولكن ألسنتهم طليقة فهو يستطيع أن يكلمهم ويكلموه ، وهو يلمس من خضوعهم له وإكبارهم إياه ما يثلج صدره ، ويعيد له ثقته بنفسه وأنه لا يزال (ربا) معبوداً ، وإن قيد وسجن ، ولا يزال له عباد مخلصون ... لم تذهب المحنة سلطانه عليهم ، ألم تلق امرأة من أتباعه بنفسها تحت سيارة السجن لأنها لا تطيق أن ترى الرب ... أسيراً مغلولا ؟ ألم يشهد عليه واحد من عبيده غاضاً بصره . فلما قال له الرئيس : أنظر فى وجهه .

وينقطع عن الكتابة تسعة أعشارهم أوفر أثراً من عشرين أو ثلاثين يتبادلون الرسائل أجمعين ، ومن هنا يرجى دوام هذا الفن الجميل فى عصرنا الحديث على الرغم من مواعيد التليفون ومقابلات المسارح وقلة الاكتراث بالرسالة الخاصة إلى جانب المطبوع والمنشور .

على أننا نحسب أن هذا الفن على جماله وإغوائه لا يستغنى عن التشجيع والاستبقاء ، وليس أدعى إلى استبقائه وإغراء القراء به من تزويدهم بالنماذج التى يلتذونها ويقبلون عليها ويستزيدون منها فقد يكون هذا الإقبال مدعاة إلى المحاكاة أو إلى ابتداع فن للمراسلة لا يتوقف على مرسل ومرسل إليه بل ينفرد به كاتب واحد يفتن فى الخطاب والجواب .

ولم يكن هذا التراسل المخترع بدعا فى العصور الأولى وهى العصور التى ازدهرت فيها الرسالة ولم يكن لأصحابها غنى عنها بالبرق والتلفون . فقد حقق شميدر Schmeidler الباحث الألمانى أن رسائل أبيلارو هلواز قد انفرد أبيلار بكتابتها كلها ولم تشاركه فيها هلوار على ما هو مشهور فى الآداب الأوربية ، وعرض برتراند رسل لهذه الدعوى فى كلامه عن أبيلار فقال : « إننى لست من ذوى الاختصاص فى تمحيص هذه الدعوى ، ولكنى أرى أنه ليس فى خلائق ابيلار المعهودة ما يمنع قبولها ويجعلها فى حكم المستحيل .

فإذا جاز هذا فيما مضى فهو أقرب إلى الجواز فى العصر الذى نحن فيه ، ولا شك أن صدق الواقع أجدى فى كتابة الرسائل من صدق الفن أو صدق الإبداع . ولكن صدق الفن لا بأس به على الملات إذا كان فيه تعويض لجناية البرق والتليفون على نوع جميل من الكتابة تحيق به نذر الزوال

وليس أولى بتحقيق هذا الغرض المرجو من عمل كعمل الأستاذ بدران ، ولعل إقبال القراء على جزئه الأول يعجل بظهور الأجزاء التالية وإضافة النماذج الجديدة إلى النماذج القديمة ، من مصادر شتى تفتح له أبوابها معرفته الوافية بالإنجليزية ، وهى لا تخلو من أوسع المراجع فى هذا الموضوع .

عباس محمود العقاد

صاح : لا أستطيع ، لا أستطيع . ؟ ! فهل يسلمه هؤلاء ويدعونه يساق إلى الموت ؟ لا . واطمأن ووثق من النجاة ، ورأى الدنيا لا تزال على العهد بها ، فالشمس مشرقة ، والبلد يعج بأهله ، والناس يذهبون ويجيئون ، ويبيعون ويشترون ، ويضحكون ويمرحون ، وكان يخيل إليه فى وحدته أن الدنيا قد شملها الظلام الذى ملأ نفسه ، وأنها فقدت رواءها ، وغاضت منها بهجتها .

وسأل ولده : كم مضى من الشهر ؟ فلما أخبره نظر فرأى أنه قد مر على سجنه شهران شهران فقط وقد كان يحسبهما عمراً طويلا ؟ ! وجحظت عيناه دهشة وسبح بنظره فى الفضاء ، لقد انساه هذان الشهران حياته الماضية كلها ، ومحوا منها أيام الحرية والعز والربوبية ، فكأنه ولد سجيناً مقيداً ، لم يكن قط السيد الذى يطاع ، والرب الذى يعبد ، وكأنه لم يكن له شعب يعيش به وله ، ويبذل الروح فى سبيله . ولا يريد من الدنيا والآخرة إلا رضاه

وأيقظه من ذهوله صوت الجندى يدعوه إلى النزول من السيارة ، فقد بلغت المحكمة ، فرأى الناس مزدحمين ينظرون إليه ويتسلون برؤيته ، وكان يعرف أكثرهم ويعرفونه ، فأغضى وامتلأت نفسه حنقاً على الحكومة لأنها جعلت محاكمته فى اللاذقية حيث قام عرش ربوبيته ليراه الناس ، ويعلموا مصيره ، ولم تجعلها فى دمشق المدينة الكبيرة التى لا يعرفه فيها إلا القليل ورأى الناس متلهفين على إشباع أبصارهم منه ، والشماتة به ، كأنهم فى رواية تمثل على المسرح ، يريدون أن يأخذوا بحظوظهم من المتعة بها ليعودوا إلى دورهم ، ويصلوا ما انقطع من أعمالهم ، الحملة هكذا : والرواية رهان على رأسه بين النائب العام والمحامى أيهما أبلغ مقالا ، وأطول لساناً ، وأقدر على سرد مواد القانون . نعم سيعود الناس إلى دورهم ، إلا الرب ، فلن تبقى له دار يعود إليها !

وكان فى جلسات المحاكمة الأولى ممتلئا املاً ، واثقا بنفسه وبقيام شعبه بنصرته ، ولكنه سمع فى هذه الجلسة شهادات أتباعه عليه ، والوثائق تنهال على عاتقه كأنها ضربات معول صلد على جدار من اللبن ... تضيق عليه باب النجاة ، وتسد طريق الخلاص ، فتضعضع وأوشك أن يموت فى نفسه الأمل .

وسمع النائب العام يتكلم ، ويطلب له الموت ، ففكر أن يثب إلى عنقه ، فيضع يديه على رقبته فلا يرفعهما حتى يخنقه وليصنعوا بعد ذلك ما يريدون ، أيقدرون على أكثر من الموت ؟ وتصور الموت ففزع منه وخافه ، لا ، إنه لا يريد أن يموت ... وسمع محامى الدفاع يقول كلاما سخيفا ، فأعرض عنه ، وأبغضه ، وماذا يقول المحامى وهو نفسه لا يستطيع أن ينكر شيئا مما اتهم به ؟

ودنت ساعة الحكم .

***

تلى كلام طويل ، لم يستطع أن يتفهمه ، لأن ذهنه كان معلقا بكلمة واحدة ، هى التى تحدد مصيره ، قد حبس لها أنفاسه ، ووقف لها دقات قلبه ، وخال كل ثانية فى انتظارها دهراً ، فلما سمع هذه الكلمة خارت قواه ، ووهى عزمه ، وسقط على كرسيه لقد كانت هذه الكلمة : الإعدام[1] !

ورأى الناس يقبون إليه ، ويتدافعون ليحدقوا فى وجهه ، والمصورين يوجهون إليه آلاتهم ثم شعر كأنه انفصل عن هذه الدنيا ثم ابتعد عنها ، حتى رآها وهى تدور من حوله ، وقد تداخلت مشاهدها ، وخفيت معالمها ، ورأى الناس كأشباح تتحرك خلال ضباب الأوهام ، وأحس بالقيود توضع فى يديه ، وبأنه سيق إلى السيارة فألقى على مقعدها ، وسمع قهقهة كأنها صاعدة من جوف جب عميق ، ولفظاً فيه ذكر اسمه وذكر المشنقة . ثم أخذه الدوار ، ولم يعد يدرك شيئا .

ولما احتوته حجيرته أحس أنه انحطم وسحقت عظامه ، كأنما مشت عليه المسالف[2] ... لقد حكم عليه بالإعدام ... ولكن الليل قد انقضى وطلع الصباح ، ثم نزل الليل مرة ثانية ، وهو حى كما كان من قبل الحكم ، إلا أنه لم يعد يخرج إلى المحاكمة ، ولم يعد يرى أولاده ولا صحبه ، وكانت الأيام والساعات تمر به فارغة واسعة كأنها أبهاء قصر مهجور ، وقد كانت له أعمال يفكر فيها كما يفكر الناس فينسى بها مر الوقت وكر الزمان ، فأمسى وليس فى حياته إلا الانتظار ، وإذا كانت ساعة انتظار النعمة تبدو طويلة مملة ، فكيف بمن ينتظر الموت ؟ وكان يود لو يتحقق الأمل بالعفو الذى وعده به محاميه ، أو يعجل عليه بالموت

(١) لا عدام بهذا المعنى خطأ شائع

(٢) المسالف هى ما يسمى المدملة فى الشام ووابور الزلط فى مصر

ليستريح من هذا القلق الذى هو شر من الموت ، إذ كان يجهد خياله أبداً ليتصور ساعة الإعدام ، حتى ليحس كل لحظة شدة الحبل على عنقه ، وحرارة الرصاص فى صدره ، فكأنه كان يموت فى كل لحظة مرة .. وكان أشد ما يزعجه من الموت هذه الفضيحة ، وأن يراه ذليلا مهينا من كان يراه بالأمس سيداً وربا ، ولو جاءه الموت طبيعيا[1] كما يموت الناس لما آله هذا الألم ، أما أن يتحكم فيه بشر مثله ، وأن يملك نزع حياته من بين جنبيه وهو لا يملك منحها ولا ردها ، فذلك ما لم يستطع حمله ... وفكر فى العفو ، فرآه سهلا قريباً ، أنه فى يد رجل مثله مخلوق من لحم ودم ، لا يكلفه إلا أن يكتب بقلمه ثلاث كلمات فى ذيل العريضة التى قدمها محاميه ، فهل يضن بها ؟ وهل تهون حياته هذا الهوان حتى لا تساوى مشقة كتابة ثلاث كلمات ؟

وتنبه ضميره فذكر كيف كان يستهين هو بحياة الناس ، وذكر كم أزهق من أرواح ، وكم أهلك من نفوس ، وكيف كان يدع طعامه فيقتل الرجل ثم يعود ليتم طعامه كأنه لم يصنع شيئاً ، وكيف كان يقتل وهو يتحدث ثم يرجع إلى حديثه لا يقطعه ، لقد كان فيمن قتل أزواج عاشقون لهم نساء ، وآباء لهم أولاد ، وشباب لهم أمهات ، فما فكر فى نسائهم ولا أولادهم ولا أمهاتهم فهل يفكر أحد اليوم فى زوجاته وأولاده ؟

***

ومرت به الأصباح والعشايا وهو يرتقب وما من جديد وانحصرت حياته فى النوم والطعام والتفكير وما ينام وإنما يهده اليأس فيلقى بجنبه على الفراش يرى مروعات الأحلام ، وما يأكل وإنما يضعفه الجوع فيدس فى فمه لقيمات تقيه الموت ، وما يفكر وإنما يرى صور ماضيه ماثلات على جدار الغرفة ، فينظر إليها كما ينظر المرء إلى فيلم فى سينما .

فجعل ينظر إليه ...

رأى (جوبة البرغال) هذه القرية التى تغلغلت فى جبال العلويين حتى وجدت أقفر بقعة فيها وأوحشها وأبعدها من العمران ، فى فجوة من الصخر ، يطيف بها جبل قائم فيطاوقها من جهاتها الثلاث ، كأنه حصن حربى فلا يدع لها إلا بابا ضيقا يطل منه جبل آخر ، يمد إليه (خشمه) فينحدر إلى الفجوة حتى إذا توسطها اضطجع وتمدد ، فاستقرت الجوبة على عنق هذا الجبل النائم ، يحميها كتفه من هنا ومن هناك قلمات الصخر الراسيات من الجبل المستدير ، وذراه الشامخات الأعالى ، هذه هى عاصمة ملكه ، ومعقله ومثوى عرشه الربانى ... التى ظن أنها ستعصمه من جبابرة الأمس ومن عفاريت الجن ، ومن القنابل الطائرة والنازلة والندرية .. ثم تمده بالقوة والأيد حتى يقرأ منها على الدنيا ، مرة ثانية ، كتاب الذعر والخوف والاغتيال ، الذى كتبه من قبل فى هذه الجبال وهذه التلاع اتباع الحسن بن صباح وسنان شيخ الجبل ...

وتبدل المشهد وعاد به إلى الماضى ، إلى أول عهده بالدنيا يوم كان فتى غراً يرعى الأغنام فى هذى التلاع ، لا يحمل هما ، لأن الهم يحتاج إلى فكر ولم يكن له رأس يفكر ، ولا يطمع فى شىء إلا لقيمات تسد رمقه وتشد صلبه ؟ وفراشاً من القش يريح جنبه ألا ليت هاتيك الأيام قد دامت ، ودام الفقر والبؤس ، ولم يعرف طريق المجد الذى يوصل إلى المشنقة ، وذرفت من عينه دمعة ، فأسرع فمسحها وتلفت يخشى أن يراه أحد وهو يبكى ، وقد كان أشد شىء عليه أن يسخر منه اليوم عباده بالأمس ، فلم ير أحداً فاطمأن وعاد يستعرض (فلم) حياته على مهل ، فرأى أول فصل فى كتاب مجده ، وأول صفحة من شمر بؤسه ...

وكان ذلك فى يوم بارد من أيام الشتاء ، أقفرت فيه الأودية وسدت المسالك ، وبدت الدنيا كلها فى ملاءة بيضاء من الثلج ، ورجع الرعاة إلى القرية ، وعكف الناس على البيوت ، وهبط فيه القرية شيخ علوى ذكى مشعبذ ، فمر به فرآه مغمى عليه ، وكان به داء الصرع .. فصحاه وأخذه معه ، فعلمه فنون الشعوذة ، وأقنعه أنه المهدى المنتظر ، وطفق يخرق به على العامة من أهل الجبل ، وأهل الجبل كلهم من العامة ، وهم أجهل من الأنعام ، وأوحش من الوحوش ، يكفرون بالله ويؤمنون بالمهدى ، وينكرون الوحدانية ويقولون بالتقمص ، ويتساهلون بالقتل ، ويدينون بالنهب ، ويتبعون شريعة الذئاب ، فسرعان ما آمنوا به وصدقوه والتفوا حوله ، وكان ذلك سنة ١٩٢٣ .

ويتغير المشهد فيراه وقد قبض عليه وعلى شيخه وحوكما وسجنا ، ثم نفيا من الأرض ... ثم يعود وكله حنق على الشيخ

(١) طبيعيا لا طبعيا كما يقال فى هذه الأيام .